مدفن السلطان مظفر الدين بين الحقيقة والوهم

دكتور محسن محمد حسين

احيانا يكون للتصور المتوارث قوة تفوق قوة الحقيقة التاريخية طالما كان التصور مستمرا وراسخا في اذهان الناس وله مفعول يوازي مفعول تلك الحقيقة ، وما دامت هذه الحقيقة لم يتم العثور عليها ، هذا اذا كان ثمة اعتقاد راسخ عن وجود حقيقة خافية غير التي في اذهانهم ، او ان ما هو متعارف عند الناس لا يمثل وجه الحقيقة . وتقع مسؤولية الكشف التاريخي على عاتق اصحاب الشان من المهتمين بهذا الجانب .

سقت هذه المقدمة في محاولة مني لمحو تصور شائع في اذهان الاهلين في اربيل حول ضريح سلطان مدينتهم الملك المعظم مظفر الدين كوكبري . والواقع انه ليس المرة الاولى التي اقوم فيها بتصحيح بعض اوجه تاريخ اربيل . فقد سبق لي وان قمت بما يشبه « عملية مسح» تاريخية قبل سنين(١) كان الغرض منها تصحيح الاخطاء التي وقع فيها بعض الباحثين فمن تصدوا للكتابة عن تاريخ اربيل او تاريخ اسرة بكتكين التي ينتمي اليها مظفر الدين كوكبري ، مثل الاستاذ طه باقر والاستاذ عباس العزاوي والدكتور عبدالقادر احمد طليمات والدكتور سوادي عبد محمدالرويشدي والدكتور ناجي معروف والدكتور ابراهيم علي طرخان وشارلس ج. روزبلت وغيرهم .

* ■ *

وفي كتابنا « اربيل في العهد الاتابكي »(٢) ذكرنا ان القبر الذي يقع وسط مدينة اربيل ، بالقرب من مركز المحافظة ، ينسب خطا الى سلطان الامارة الشهير مظفرالدين كوكبري ، اذ تجمع مصادر التاريخ المعاصرة لتلك الفترة او المتاخرة عنها ،في القول ان السلطان توفي في داره التي كانت في اسفل القلعة في رمضان سنة ٦٣٠ هـ/حزيران ١٢٣٣م والتي كانت – اي الدار– تعود في وقت سابق الى الامير شهاب الدين قرطاي بن عبدالله(٣)، ثم نقلت جثته الى القلعة ودفن في مسجدها بصورة مؤقتة ريثما يحين موسم الحج، فمما يذكر ان مظفرالدين قد اوصى ان يدفن في تربته التي اعدت خصيصا له في جبل عرفات بمكة المكرمة(٤). فلما توجه الحجاج الى الحجاز اخذوا معهم الرفاة ، لكنهم لقوا متاعب جمة اثناء سفرهم لصعوبة الحصول على الماء في موسم ذلك العام ، حتى تعذر عليهم اكمال الفريضة ، فاضطروا الى العودة من عند مدينة لينه(٥) ومعهم رفاة امير بلادهم ، وراوا ان من الانسب أن يدفنوه بظهر الكوفة (النجف) قريبا من مشهد امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام(٦) .

ويذكر بعض المؤرخين روايات تختلف عما ذكره جمهرة المؤرخين بعض الشيء ، فينفرد ابن العبري بقوله ان مظفرالدين كوكبري قد دفن في مكة المكرمة فعلا(٧) . اما الغساني فقد ذكر انه دفن في ظهر الكوفة اولا ثم حمل رفاته الى مكة ودفن فيها(٨). ورغم هذا الاختلاف ، الا ان الجميع متفقون على انه لم يتم دفنه في اربيل اتفاقا كليا . ترى لم يكون هذا الضريح المنتصب وسط مدينة اربيل القديمة الذي قامت الامانة العامة للاوقاف مشكورة بترميمه قبل حوالي سنتين ، وعلى واجهة الضريح من جانب الشارع العام وضعت قطعة دونت عليها تفاصيل سيرة مظفرالدين كوكبري :

١ – ولد يوم ٢٧ محرم عام ٥٤٩ هجرية المصادف ١١٥٤ ميلادية .

٢ – توفي يو م١٨ رمضان عام ٦٣٠هـ المصادف ١٢٣٢ميلادية.

ثم تفاصيل عن اعمال منجزات صاحب اربيل .

وعلى قطعة اخرى كتبت عبارة : بتوصية من قيـــادة الحزب والثورة تقوم لجنة من الامانة العامة للثقافة والشباب ، الامانة العامة للاوقاف ، محافظة اربيل بتعمير مرقد الســلطان مظفر الدين الـ (گوگبرى) وعنـد مدخل الضريح كتب : مرقد السلطان مظفر الدين الـ (الگوگبري) . هكذا .

* ■ *

ان هذا الضريح يحتمل ان يكون لاحد ابناء اسـرة بكتين التي ينتمي اليها مظفرالدين گوگبرى ابن زين الدين علي كجك ، الا انه (اي الضريح) نسب الى مظفرالدين لطغيان شهرته على باقي ابناء هذه الاسرة ، ليس بالنسبة لتاريخ اربيل او على نطاق هذه الاسرة فحسب ، بل ان شهرته ــ في اكثر من مجال ــ فاقت شهرة والده الامير الشجاع ، مؤسس امارة اربيل الاتابكية ، واحد مؤسسي دولة الموصل الاتابكية .

وثاني اثنين من ابناء زين الدين علي هذا الذي تبوأ عرش اربيل هو زين الدين(٩) يوسف نيالتكين الذي حكم اربيل قرابة عشرين حولا ، دام من حوالي سنة ٥٦٦ هـ/١١٧٠ م الى سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م (١٠) . ومن المؤكد ان القبر ليس لهذا الامير كذلك ، فالثابت عند جمهرة المؤرخين ان يوسف نيالتكين هذا توفي عند مدينة الناصرة بارض فلسطين في رمضان من ســنة ٥٨٦هـ/١١٩٠ م ودفن فيها(١١) . وكان ذلك اثناء قيامه بواجبه المقدس في طرد الصليبيين تحت راية القــائد الكردي الخالد صلاح الدين الايوبي ، وكان يوسف يقود جيش اربيل بنفســه يومئذ .

* ■ *

فدفن يوسف نيالتكين في ارض الناصرة ، ودفن مظفرالدين گوگبري في ارض النجف الاشرف ، يجعلنا نرجح ان يكون الضريح لمؤسس الامارة زين الدين علي كجك . وكان هذا الامير يمتلك مناطق شاسعة من ارض كردستان والجزيرة تمتد من حران(١٢) وسنجار الى اربيل وشهرزور وقلاعها ، ومن تكريت الى بــلاد الحميدية(١٣) وقلاع الهكارية(١٤) اضافة الى قلعة الموصل ، وقد تنازل عن كافة ممتلكاته في اواخر ايامه للاتابك قطب الدين مودود صاحب الموصل ، واكتفى باربيل ، لانه كان يعتز بها كثيرا لكونها قد اقطعه اياها الاتابك المؤسس عمادالدين زنكي ، ولانه (اي زين الدين) قد وضع في اربيل اولاده وخزانته(١٥) . ولما عجز عن العمل لاصابته بالعمى والطرش ، وتجاوز سنه التسعين ، استأذن الاتابك قطب الدين مودود وطلب منه السماح له بمغادرة الموصل والاستقرار في اربيل وقال له : انك لا تنتفع بي بعد ، فقد كبرت وضعفت قوتي ، وخانني سمعي وبصري(١٦) ، فودع الاتابك وغادر الموصل ووصل الى اربيل ومكث فيها فترة ثم مات في سنة ٥٦٣ هـ/ ١١٦٨ م « ودفن في التربة التي عرفت باسمه ، والتي كانت تجاور الجامع العتيق داخل سور مدينة اربيل »(١٧) .

هذا النص الاخير اورده المؤرخ الكردي الاربيلي الشــهير (ابن خلكان) للذي عاش في اربيل فترة من عمره ، ثم غادرها قبل وفاة مظفرالدين بحوالي اربع سنين . وعلى الرغم من عدم وجود آثار للجامع العتيق الذي تحدث عنه ابن خلكان ، لكن ثمة احتمال في أن يكون هذا الجامع قد اندثر ، وكان جامعاعتيقا ايام هذا المؤرخ الذي ولد بعد وفاة زين الدين علي بحوالي خمس واربعين سنة ، واذا صح قولنا في اندثار هذا الجامع ، فانه لن يكون الجامع القديم الوحيد الذي ازيلت آثاره ، اذ ان الجامع الذي ما زالت مئذنته الجميلة (المظفرية)(١٨) تنتصب كشاهد على وجود جامع جامع في هذه البقعة يومئذ قد اندثر هو الآخر ولم يبق منه سوى هذه المئذنة . وكانت بقايا هــذا الجامع شاخصة لدى زيارة الرحالة (كارستن نيبور) الى اربيل سنة 1766(١٩) ، وكذلك اثناء زيارة كلوديوس ريج اليها ســنة ١٨٢٠(٢٠). وقد صمدت المئذنة دون بقية مرافق الجامع بسبب المواد التي استعملت في بنائها ، وهي الجص والآجر الجيــد والاحجار المهندمة .

لقد سقنا الكلام عن الجامع والمئذنة لنؤكد ان الجامع ، رغم قدسيته ومكانته الدينية والعلمية والاجتماعية المميــزة في المجتمعات الاسلامية ، الا انه قد يتعرض للاندثار والزوال ، اذا لم تستمر اعمال الصيانة فيه ، ولنؤكد ان اكثر من جامع قد تعرض للزوال ، ومنها الجامع العتيق الذي تحدث عنــه ابن خلكان . ولهذا فان عدم وجود بقايا جامع بالقرب من الضريح موضوع البحث لا يكفي لنفي ما نحاول اثباته . ونرى ان اهالي اربيل لم ينسبوا هذا الضريح ، ومنــذ تسعة قــرون ، الى الـ (سلطان مظفر) اعتباطا ، بل نسبوه اليه لوجود علاقة بين

من يرقد فيه وبين هذا السلطان ، ولان هذا لم يدفن في اربيل، كما اكدنا ذلك ، لذا نكاد نجزم انه ضريح والده زين‌الدين علي كجك .

الهوامش :

١ ـ انظر مقالنا (قراءة ثانية لما كتب عن تاريخ اربيل في العهد الاتابكي) المنشور في مجلة المجمع العلمي الكردي ـ بغداد ـ ١٩٧٦ . العدد الرابع ص ٥٢٠ .

٢ ـ اطروحة ماجستير ، ط ١٩٧٦ مطبعة اسعد ، بغداد.

٣ ـ كبير اسرة قرطاي التي عرفت بتولي ابنائها قيادة جيش اربيل الاتابكية انظر (ابن الشعار ـ مخطوط عقود الجمان. ج١ ترجمة احمد بن قرطاي) .

٤ ـ ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ٢٧٦/٣ .
الفاسي المكي ، العقد الثمين : ١٠٦/٧ .

٥ ـ لينة : منزلة في طريق الحجاز من جهة العراق . ابن‌خلكان ٢٧٧/٣ .

٦ ـ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٦٨٣/٨
ابن خلكان ٢٧٦/٣ .
الذهبي ، مخطوط تاريخ الاسلام ق.م الجزء الاخير ورقة ١٨٣ ـ ١٨٤ .
ابن كثير ، البداية والنهاية : ١٣٧/١٣ .
ابن ابي عذيبة ، انسان العيون : ٣٠٤ .
ابن العماد ، شذرات الذهب ١٤٠/٥ .

٧ ـ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول : ٢٤٩ .

٨ ـ الفساني ، المسجد المسبوك ، طبعة رونيو ، ٣٣٠ .

٩ ـ ننوه الى ان الاب والابن يحملان اسم الشهرة (زين‌الدين) ، وتفاديا لحدوث الالتباس في ذهن القارىء سنكتفي باسم (يوسف نيالتكين) لدى ذكر الامير الابن .

١٠ـ للمزيد انظر كتابنا اربيل في العهد الاتابكي ص ٦٨ـ٧٩ .

١١ـ انظر ابن شداد : النوادر السلطانية ص : ١٤٤ .
العماد الكاتب : الفتح القسي ، ص : ٢٩٨ .
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج١٢ ص ٥٦ .
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٤٠٧ .
ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج ٣ ص ٢٧٤ .
الفساني : المسجد المسبوك ، ص ٤٣ .
ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر ، ج٣ ص ٧٩ .
ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ج ١٤٧/٢ .
ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، مجلد ٤ ج ١ ص :٢٣٥.

١٢ـ حران : مدينة عظيمة مشهورة تقع بين الرها (اورفة الحالية بتركيا) وبين الرقة . معجم البلدان ٢٣٥/٢ .

١٣ـ الحميدية : من مدن بلاد الحميدية يومئذ عقرة (العقر) وشوش من اعمال الموصل الجبلية. معجم‌البلدان :٣٧٢/٣.

١٤ـ الهكارية : بلدة وناحية ومجموعة قرى في اطراف (جزيرة ابن عمر) يسكنها اكراد يقال لهم الهكارية . معجم البلدان: ٤٠٨/٥ من مدنها العمادية (آمدي) انظر معجم البلدان ١/ ٥٤٠ و ١٤٩/٤) .

١٥ـ الكامل : ٣٣١/١١ .
ابن العبري ، تاريخ مختصرالدول : ٢١٢ .

١٦ـ مرآة الزمان : ٢٧٢/٨ .
ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٣٧٨/٥ .

١٧ـ وفيات الاعيان : ٢٧٠/٣ .
ابن ابي عذيبة ، مخطوط انسان العيون ، ص : ٢٩٢ .
وعن وفاته ودفنه في اربيل انظر :
ابن الاثير ، الكامل : ٣٣١/١١ .
ابن الاثير ، الباهر : ١٣٥ .
سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان : ٢٧٢/٨ .
ابو شامة، الروضتين : ١٥٢/١ .
ابن العبري ، تاريخ الدول السرياني ، مجلة المشرق ، مجلد ٤٧ ج ١ لسنة ١٩٥٣ ص : ١٩
The Chronography, V. 1, p. 293.
ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٤ ، ج١ ص ١٤ .
وانظر ايضا الحموي ، التاريخ المنصوري ، ص ١٧٧ .
الفارقي ، هامش ص ٢٨١ من كتاب ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق) .

١٨ــ او ما كانت تسمى (منارة القفار ــ مينارەى چۆلى باللغة الكردية) .

١٩ــ كارستن نيبور ، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ص : ٩٠ .

٢٠ــ رحلة ريج ، ص : ٢٤٤ .

المراجع :

ابن ابي عذيبة ، شهاب‌الدين احمد بن محمد بن عمر (ت ٨٥٦ هـ/١٤٥٢ م) .

١ ــ انسان العيون في مشاهير سادس القرون ، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا ، لجامعة بغداد ، كلية الآداب ، رقم ٢٤٨ .

ابن الاثير ، عزالدين علي بن ابي الكرم محمد الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) .

٢ ــ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل . تحقيق د. عبدالقادر احمد طليمات ، ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م .

٣ ــ الكامل في التاريخ . ط دار صادر ــ دار بيروت ، لبنان ١٩٦٦ .

ابن تغري بردي ، جمال‌الدين ابو المحاسن يوسف الاتابكي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) .

٤ ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة .

ابن خلكان ، شمس‌الدين احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .

٥ ــ وفيات الا عيان وانباء ابناء الزمان . تحقيق محمد محي‌الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة ١٩٤٨ .

ابن شداد ، بهاءالدين يوسف بن رافع الاسدي (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م) .

٦ ــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح‌الدين)، تحقيق د. جمال‌الدين الشيال ، ط الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٤ .

ابن الشعار ، كمال‌الدين المبارك بن ابي بكر بن حمدان (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦ م)

٧ ــ عقود الجمان في شعراء هذا الزمان ، مخطوط مصور مخطوط مصور بالميكروفيلم عن النسخة الفريدة الموجودة في مكتبة السليمانية باستنبول ــ تركيا .

ابن العبري ، ابو الفرج غريغوريوس اهرون الملطي (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م)

٨ ــ تاريخ الدول السرياني ، ترجمة الخوري اسحق ارملة السرياني المنشور في مجلة المشرق ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت من مجلد ٤٦ لسنة ١٩٥٢ الى المجلد ٤٩ لسنة لسنة ١٩٥٥ .

٩ ــ نفس المؤلف : تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، ط٢ ، بيروت ١٩٥٨ .

ابن العماد ، ابو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي (١٠٨٩ / ١٦٧٨ م) .

١٠ــ شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، مطبعة القدسي ، القاهرة ، ط ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م .

ابن الفرات ، ناصرالدين محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م)

١١ــ تاريخ ابن الفرات ، تحرير ونشر د. حسن محمدالشماع ١٩٦٧ ــ ١٩٧٠ .

ابن كثير ، اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ / ٣٧٢ م)

١٢ـ البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٣٢ م .

ابن الوردي ، زين الدين عمر (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م)

١٣ـ تاريخ ابن الوردي ، ذيل المختصر في اخبار البشر ، المطبعة الحيدرية النجف ١٩٦٩ م .

ابو شامة ، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م)

١٤ـ الروضتين في اخبار الدولتين ، مطبعة وادي النيل ١٢٨٧٠ ـ ١٢٨٨ هـ .

ابو الفداء ، عمادالدين اسماعيل بن محمد تقي الدين عمر (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) .

١٥ـ المختصر في اخبار البشر ، المطبعة الحسينية المصرية ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .

الاصفهاني ، عماد الدين الكاتب الاصفهاني (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠ م)

١٦ـ الفتح القسي في الفتح القدسي ، طبعة ليدن ١٨٨٧ .

الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨ م) .

١٧ـ معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧ .

الحموي ، ابو الفضائل محمد بن علي (ت ٦٤٤هـ / ١٢٤٦)

١٨ـ التاريخ المنصوري ، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان ، نشر بطرس غرياز نيويج ، موسكو ، دار النشر للآداب الشرقية ، ١٩٦٠ .

الذهبي ، ابو عبدالله شمس الدين بن احمد الدمشقي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) .

١٩ـ تاريخ الاسلام ، مخطوط مصور في كلية الآداب ، مكتبة الدراسات العليا ، رقم ١٦٥٩ ـ ١٦٦٠ .

ريج ، كلوديوس جيمس ريج

٢٠ـ رحلة ريج الى العراق عام ١٨٢٠ م ، ترجمة بهاءالدين نوري، مطبعة السكك الحديدية ، بغداد ، ١٩٥١ .

سبط ابن الجوزي ، شمس الدين قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م)

٢١ـ مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية ، حيدر آباد الهند ج ٨ ط ١٩٥٢ .

الفساني ، ابوالعباس اسماعيل بن العباس(ت٨٠٣هـ / ١٤٠٠ م)

٢٢ـ المسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك . دراسة وتحقيق د. شاكر محمود عبدالمنعم . رسالة ماجستير ، مطبوع بالرونيو ١٩٧٠ .

الفاسي المكي ، تقي الدين محمد بن احمد بن علي الحسني (ت ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨ م) .

٢٣ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الامين . تحقيق فؤاد سيد وآخرون ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة .

د. محسن محمد حسين

٢٤ـ اربيل في العهد الاتابكي. اطروحة ماجستير . مطبعة اسعد، بغداد ١٩٧٦ .

نيبور ، كارستن

٢٥ـ رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمه عن الالمانية د. محمود الامين ، ط بغداد ، ١٩٦٥ .

اليافعي ، ابو محمد عبدالله بن اسعد بن علي اليمني المكي (٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م)

٢٦ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ط٢ منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، ١٩٧٠ م .